العلامة إينشتين يبسط رأيه في

العلم الحديث

والشعور الديني الكوني

[وجه نابليون الى لابلاس — أعظم فلكي عصره ومؤلف كتاب «الميكانيكا السماوية» — سؤالا قال فيه إنه لم يعثر في مؤلفات لابلاس على ذكر «الله» فما سبب ذلك؟ فكان رد لابلاس (لست بحاجة بصاحبي الى مثل هذا الفرض). في هذا الجواب يتلخص وصف موقف العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع من سر الكون، وهو موقف غلبت عليه صورة ميكانيكية وكنها الايمان بان النواميس الطبيعية كافية لتفسير كل ما في الكون ومردها الى القول بان كل حادث في الكون سبق تحديده بحسب هذه النواميس. ولكن المذاهب الجبرية والمادية وما اليها صدمت صدمتها الاولى في مستهل هذا القرن عندما أخرج بلانك نظرية «الكوانتم» ولا يخالى اذا قلنا أن في دوائر العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية في القرن العشرين انقلاباً قد لا يقل أثراً في مستقبل الثقافة البشرية عن أثر هذه الحرب العالمية الطاحنة وما ينطوي في تاياها من بذور الدمار الجديد. ولذلك صدرنا الجزء الاول من المجلد الثالث من المقتطف برأي عالم أميركي كبير في ناحية من موضوع العلم والدين؛ ونختم باب المقالات برأي العلامة إينشتين، وسنوالي نشره ما يتاح لنا من هذا القبيل — المقتطف]

كلّ ما يأتيه الانسان من عمل وتفكير انما يأتيه اشباعاً لحاجات يحسّ بها او فراراً من الألم. ولا بدّ من تذكر هذا القول اذا حاولنا أن نستقصي النهضات الروحية او العقلية وكيف تنشأ وتترعرع. لان الشعور والتوق هما القوتان المحركتان للسعي الانساني والانتاج الانساني، في كل شكل من الاشكال يتجلى هذا السعي او يتجسم ذلك الانتاج

فما هو الشعور وما هي الحاجات التي حملت الانسان على التفكير تفكيراً دينيًّا أو على الايمان، بأوسع معاني الايمان والتفكير الديني. فنحن اذا تأملنا ذلك وجدنا ان عواطف مختلفة كانت مهداً للتفكير الديني وللاختبار الروحي

ففي الشعوب البدائية كان الخوف اول حافز للانسان على الشعور الديني — الخوف من الجوع والخوف من الحيوانات الضارية والخوف من المرض والموت. ولما كان فهم العلاقات السببية الكائنة بين مظاهر الطبيعة وعللها محصوراً في نطاق ضيق، كانت النفس البشرية تخلق كائناً شبيهاً بها الى حدّ ما، ترجع اليه جميع الأفعال والاختبارات التي تبعث فيها شعور الخوف وتأمل ان تسترضي هذا الكائن بأعمال وتضحيات، تثبت خبرة الشعب وتقاليده الموروثة، انها امور ترضيه او تكسر من حدة غضبه. هذا دين أدعوه دين الخوف

ثم يستقرّ هذا الدين بقيام طائفة من الكهنة تدّعي انها تتوسط بين الناس والكائنات

التي يخافونها وبذلك تقبض على زمام السلطة وتحل من الشعب في اعلى مقام

وكثيراً ما يجمع زعيم او طائفة او طبقة من الطبقات التي تسمى قواداً من مصادر دينية ، بين منصب الكاهن ومنصب الحاكم الزمني . او قد تعقد محالفة بين طائفة الكهنة وطائفة الحكام للمحافظة على مصلحة الدولة والامة حسبما يرونها

وثمة مصدر آخر للشعور العقيدة الدينية في الشعور الاجتماعي وما يتصل به من ثواب وعقاب . فالآباء والامهات وجميع زعماء الشعوب بشر غير معصومين من الخطإ ولا بمعزل عن الموت . فالتوق الى الاسترشاد والمحبة والمعاونة يخلق في النفس صورة الله الادبية والاجتماعية . هذا هو ربُّ العناية الذي يحمي ويحكم ويثيب ويعاقب . هذا هو الاله الذي يحبُّ ابناءه ويعهد السبيل لخلودهم . هو المعزي في الألم والبؤس والملجأ المكتوم . هو الحافظ للارواح المؤمنة . هذه صورة الله الاجتماعية . ومن اليسير ان يتتبع الكاتب تطوُّر فكرة الله من ديانة الخوف الى ديانة الاجتماع او ديانة الآداب في كتابات البهود المقدسة . وديانات أكثر الامم المتحضرة وخاصة امم الشرق تغلب عليها صبغة الديانة الادبية

ومن أهم وجوه التحوُّل في الامم القديمة هو تحول الفكرة الدينية فيها من ديانة خوف الى ديانة آداب . ويجب ألاَّ نخطىء بحسبان ديانات الاقدمين ديانات خوف مجرد وديانات المتحضرين ديانات آداب مجردة . لان الديانات الاولى والثانية انما هو مزيج ، يغلب على الاولى عنصر الخوف ويغلب على الثانية عنصر أدب النفس . وفي كليهما يتخذ الله صورة انسان

ولكن بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة يرتفعون بفكرتهم الدينية فوق هاتين المرتبتين ويهم للصعود الى مرتبة ثالثة من الاختبار الديني أدعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسُّ به . لانه لا يشتمل على صورة انسانية لله . ولكن من يحسّ به يدرك بطلان ارغبات الرائد والاغراض الانانية الصغيرة وصل النظام العجيب الذي يكشف عنه في عالم الطبيعة وعالم الفكر . ويشعر ان مصير الانسان انما هو فيه لذلك يحاول ان يفسر الكيان الكوني كوحدة وحدة عاقلة ذات معنى

ودلائل هذه الفكرة الكونية تبدو لنا في عهدي ديانة الخوف وديانة الاجتماع . ففي مزامير داود وفي رسائل الانبياء نجد له على اثر جلي . وتعتبر هذه الفكرة الكونية أقوى في مجردة منه في المذاهب الدينية الاخرى على ما اثبتته لنا وسائل غير مباشرة

وبافرة الدين كانوا يعتقدون في جميع العصور وهذا الاعتقاد لا يزال يعتقد به الكثيرون لا يعترف بانه مصدوغ في صورة انسان ولا محدَّد رحاله

وعليه يتعذر عليك ان تجد كنيسة تقوم معتقداتها الاساسية على هذه النظرة الكونية

الى الدين . فقد يتفق لنا ان نجد بين هراطقة العصور رجالاً كانت تدفعهم أسمى البواعث الدينية . فكان بعضهم في نظر معاصريهم ملحداً وكان البعض الآخر من الأبرار القديسين

وإذا نظرنا الى ديموقريطس والقديس فرنسيس الاسيزي وسبينوزا من هذه الناحية رأيناهم في صعيد واحد . فكيف نستطيع أن نتقبل هذا الشعور الديني من انسان اذا كان لا يمكننا من تصور الله في صورة ما ولا يأذن بطبيعته في بناء فقه ديني عليه ؟ وعندي ان اسمى وظائف الفن والعلم هي أن تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظه متقداً في صدور الناس المستعدين له

ومن هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كل الاختلاف عن النظر المألوف . فدرس التاريخ يحملنا على الاعتقاد بأن العلم والدين ، خصمان يتعذر التوفيق بينهما وذلك لسبب معقول جداً . لأن انساناً مشبعاً بروح الناموس الطبيعي في كل حادثة تحدث ويسلم بفكرة وجود علة لكل معلول ، لا يستطيع أن يسلم قط بفكرة كائن يعترض تسلسل الحوادث تسلسلاً طبيعياً . فلا ديانة الخوف ولا ديانة الاجتماع والآداب تستطيع أن تعمل في تفكيره وشعوره مقام الاسى

لذلك رمي العلم خطأ ، بهدم آداب الناس لأن السلوك الأدبي مبني على العطف والتهذيب والعلاقات الاجتماعية ، ولا يحتاج الى تأييد ما من العقيدة الدينية . ما أسرأ مصير الانسان لو كنا نحتاج الى اله رهيب أو اله يثيبنا على كل ما نفعل في ارغامنا على حفظ النظام وحسن السلوك !

فمن الطبيعي المعقول ان تقدم بعض الكنائس على محاربة العلم واضطهاده بيديه ولكني اثبت هنا ان « الشعور الديني الكوني » هو أقوى وأنبل باعث على البحث العلمي وليس باليسير على من لا يقدر امتلاك الباحثين في فروع العلم ، وما يقتضيه الابداع العلمي من الدأب والتضحية والبذل في جميع نواحيه ، وبُعد مرمى الباحث عن الربح المادي ، ان يدرك قوة البواعث التي تفسر الباحثين عن كل هذا . أي ايمان ثابت في انتظام الكون وأي ان ينظم الى النور بلمعة من لمحات الحقيقة . جدوا بكبير وتبوتن الى الكشف عن بناء لا يزال في خلال سنين مطاولة من العمل المضني العلم !

نعم الذين لا يعرفون من العلم — البحث العلمي — الا مظاهره التطبيقية فكثيرون يجهلون وجه الحالة العقلية في رجال كان يحفّ بهم معاصروهم دائرون ساخرون ولكنهم ثابتون على مذهبهم فشتان ما بين الارواح المؤاتية لهم في جميع البلدان وعلى مدى جميع العصور ولا يستطيع أن يتصور مصدر الوحي الذي يدفع بهؤلاء الرجال الى الجد والتضحية وشارة رغم كل إخفاق وكل سخرية . الا من وقفوا حياتهم على هذه الغاية من العلم هو « الشعور الديني الكوني » الذي يحركهم ويمنحهم القوة !